العربي الحقيقي في العقل الصهيوني

(دراسة في حدود الادراك)

د. عبدالوهاب المسيري

في محاولة لتعريف خصوصية العنصرية الصهيونية، ينبغي القول ان الرؤية الصهيونية للعرب تنبع من خصوصية الاستعمار الصهيوني، وان هذه الخصوصية لا تكمن في تكوين الصهيونية كحركة استعمارية واستيطانية وحسب، وانما في كونها حركة احلالية ايضاً، اي انها ضرب من الاستعمار لا يهدف الى استعمار الارض، او الاستيطان فيها، او حتى استغلال اهلها، وانما الى طردهم تماماً واحلال المستوطنين الصهيونيين محلهم. لذا، تنزع العنصرية الصهيونية، اساساً، نحو تغييب العرب لا التشهير بهم (كما هو الحال مع الاعتذاريات الاستعمارية العنصرية التقليدية التي تهدف الى ابقاء الشعوب على اراضيها لاستغلالها كعمالة رخيصة). والرؤية الصهيونية للعربي تأخذ شكل متصل ادراكي ينزع نحو مزيد من التجريد. فبدلاً من رؤية الفلسطيني كانسان حقيقي مزارع يعيش على ارضه وارض اجداده، يزرعها وينتج اشكالاً حضارية تستحق الاحترام، يتحول الى انسان شرقي متخلف لا يستغل الارض على اكمل وجه. ثم تزداد درجة التجريد ليصبح ممثلاً للاغيار، عليه ان يدفع ثمن الكوارث التي حاقت باليهود عبر التاريخ، ثم يظهر هذا الانسان على انه شخصية هامشية تفتقد اي هوية قومية، او حضارية، او اية دوافع سياسية. ثم يصل التجريد ذروته (والرؤية لحظة تحققها) حينما تنكر الادبيات الصهيونية وجوده اساساً، وتغفل الاشارة اليه.

ويلاحظ، ايضاً، ان ثمة تلازماً لرؤية الذات ورؤية الآخر. ففي مقابل اليهودي، ممثل الحضارة الغربية وحامل مشعلها، يوجد العربي الشرقي المتخلف. وفي مقابل اليهودي الذي يعاني من ظلم الاغيار نجد العربي ممثلاً لهم. وفي مقابل اليهودي الخالص صاحب الحقوق المطلقة نجد العربي الغائب الذي لا حقوق له على الاطلاق، لانه غائب، تماماً، من منظور الارض المقدسة.

ان لحظة ادراك الصهيوني للعربي الحقيقي تطرح مشاكل مختلفة تماماً عن المشاكل التي يطرحها الادراك المتحيز وتتطلب تناولاً خاصاً، وهذا هو ما سنحاول انجازه. واعتقد بأن دراسة هذه اللحظة النادرة سيعمق من رؤيتنا للعقل الصهيوني وسيلقي الضوء على قضايا اساسية اخرى، مثل قضيتي «التطرف» و«الاعتدال» الصهيونيين وقضية صورة العربي في الاعلام الغربي.

الصهيونيون والعربي الحقيقي

من اوائل المفكرين الصهيونيين الذين ادركوا العربي، كانسان حقيقي تاريخي متغير، المفكر الصهيوني الروسي، احاد هعام، الذي اعلن عن احتجاجه، منذ البداية، على طريقة معاملة الصهيونيين للعرب. وقد نبههم الى ان العرب، على عكس ما تدعي الاسطورة الصهيونية، ليسوا غائبين. وهاجم